رسائل تلّغرافيّة

(٧)

فِقْهُ المقَاصِدِ الشرعيَّة فِي بَيَانِ الذِّكْرِ في القرآن

بَلَّغَهُ

ابن الكيال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وحده، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيّ بعده ﷺ، **أما بعد:**

فلقد بيَّن اللَّه العليم الحكيم في آيات كثيرة من الكتاب العزيز، المراد بلفظ «الذكر» وفقه المقاصد الشرعية وتوضيح صفته ومعناه، وهو؟ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، فكشف في كل آية من هذه الآيات، ما أراد سبحانه من الآية في مكانها، لتكتمل منظومة الفهم والإدراك والتحقيق؛ ليُعْبَد اللَّهُ تعالىٰ علىٰ بصيرة وعلم، من خلال بيان آية بأختها ليُفسِّر القرآنُ بعضه بعضًا، ولقد رقَّمْت في هذه المقالة تسع آيات علىٰ سبيل المثال لا الحصر بشرحها وبيانها.

- **بيان تسع آيات شملت فقه المقاصد الشرعية في المراد بالذكر في كتاب اللَّه:**

(١) فقد قال اللَّه تعالىٰ: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١].

قال أبو عبد اللَّه القرطبي في: «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٠٦-١٠٧):

«﴿صٓ﴾ والمعنىٰ: صادِ القرآنَ بعملِك؛ أي: عارضه بعملك وقابله به، فاعمل بأوامره وانتهِ عن نواهيه، وقيل: إن المعنىٰ: اتْلُهُ وتعرَّض لقراءته، وقيل معناه: صادَ محمدٌ قلوب الخلق واستمالها حتىٰ آمنوا به، وقال الضحاك: معناه: صدق اللَّه.

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾: أقسم بالقرآن علىٰ جلالة قدره، فإن فيه بيان كل شيء، وشفاء لما في الصدور، ومعجزة للنبي ﷺ.

قوله: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾: قال ابن عباس وقتادة: ذي البيان، وقال الضحاك: ذي

الشرف؛ أي: من آمن به كان شرفًا له في الدَّارين، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]؛ أي: شرفكم، فالقرآن شريف في نفسه لإعجازه واشتماله علىٰ ما لا يشتمل عليه غيره، وقيل: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾؛ أي: في ذكر ما يحتاج إليه من أمر الدين، وقيل: ذي الموعظة والذكر». اهـ

(٢) وقال القرطبي في قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]:

«يعني: القرآن مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقيل: فيه ذكركم؛ أي: ذكر أمر دينكم، وأحكام شرعكم، وما تصيرون إليه من ثواب وعقاب، أفلا تعقلون هذه الأشياء التي ذكرناها؟!

وقال مجاهد: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾؛ أي: حديثكم، وقيل: مكارم أخلاقكم، ومحاسن أعمالكم، وقال سهل بن عبد اللَّه: العمل بما فيه حياتكم.

وهذه الأقوال بمعنىً والأول يعمّها، أن ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ المراد بالذكر: شرفكم؛ إذْ هي شرفٌ كلها، والكتاب شرف لنبيّنا عَلَيْهِ السَّلَامُ لأنه معجزته، وهو شرف لنا إن عملنا بما فيه، دليله قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**القرآن حجة لك أو عليك**». اهـ

رواه مسلم في «صحيحه» (**٢٢٣**).

(٣) وقال أيضًا أبو عبد اللَّه القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٧٩) عند قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]:

«قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ يعني: القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في هذا الكتاب من الأحكام والوعد والوعيد بقولك وفعلك، فالرسول ﷺ مُبيّن عن اللَّه عَزَّ وَجَلَّ مراده مِمَّا أجمله في كتابه من أحكام الصلاة والزكاة وغير ذلك مما لم يُفصّلة، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يتعظون». اهـ

قلت: وثنّىٰ اللَّه في نفس سورة النحل بعد هذه الآية ليؤكد أن الذكر هو الكتاب والقرآن فقال: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]، وهذا في سياق الحصْر، بقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾؛ أي: فما كان هذا الإنزال عليك إلا للبيان للناس من رسول اللَّه ﷺ المبيّن والموضح الهادي للخلق أجمعين سبيل اللَّه كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المؤمنون: ٧٣].

قال القرطبي في نفس سورة النحل لبيان الآية (١٠/ ٨٨):

«قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ أي: القرآن ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ من الدين والأحكام فتقوم الحجّة عليهم ببيانك.

وعطف ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ علىٰ موضع قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ﴾؛ لأن محله النصب، ومجاز الكلام: وما أنزلنا عليك الكتاب إلا تبيانًا للناس ﴿وَهُدٗى﴾؛ أي: رشدًا ورحمة للمؤمنين». اهـ

● نور على نور وزيادة بيان في مضمون الذكر وصفته وحقيقته:

(٤) قال السعدي في «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان» (ص٤١٧-٤١٨) عند قوله تعالىٰ: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]:

«أي: حقيق بها وحَرِيّ أن لا تطمئن لشيء سوىٰ ذكره، فإنه لا شيء ألذّ للقلوب ولا أشهىٰ ولا أحلىٰ من محبّة خالقها والأنس به ومعرفته، وعلىٰ قدر معرفتها باللَّه ومحبّتها له يكون ذكرها له، هذا علىٰ القول بأنّ ذكر اللَّه: ذكر العبد لربّه من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك. وقيل: إن المراد بذكر اللَّه: كتابه الذي أنزله ذكرىٰ للمؤمنين، فعلىٰ هذا معنىٰ طمأنينة القلوب بذكر اللَّه: أنّها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه تطمئن القلوب، فإنّها لا تطمئن إلا باليقين والعلم؛ وذلك

في كتاب اللَّه مضمون على أتمّ الوجوه وأكملها، وأمّا ما سواه من الكتب التي لا ترجع إليه، فلا تطمئن بها، بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة وتضاد الأحكام ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وهذا إنما يعرفه من خَبَرَ كتاب اللَّه وتدبَّره، وتدبّر غيره من أنواع العلوم، فإنّه يجد بينها وبينه فرقًا عظيمًا». اهـ

● **بيان آخر لمعنى الذكر:**

(٥) قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قال الحافظ ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ١٢٩):

«قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي .... عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ قال: له وجهان: ذكر اللَّه عند ما حرّمه، وذكر اللَّه إياكم أعظم من ذكركم إياه.

وقال ابن جرير الطبري [يعني: في «تفسيره»]: حدثني ... عن عبد اللَّه بن ربيعة قال: قال ابن عباس: هل تدري ما قوله تعالىٰ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾؟ قال: نعم، قال: فما هو؟ قلت: التسبيح والتحميد والتكبير في الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك، قال: لقد قلت قولًا عجبًا، وما هو كذلك، ولكنه إنما يقول: ذكر اللَّه إياكم عند ما أمر به أو نهىٰ عنه إذا ذكرتموه، أكبر من ذكركم إياه.

وقد روي هذا من غير وجه عن ابن عباس، وروي أيضًا عن ابن مسعود وأبي الدرداء وسلمان الفارسي وغيرهم واختاره ابن جرير». اهـ

وقال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٢٦٢):

«وقيل المعنىٰ: إن ذكر اللَّه أكبر مع المداومة من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر، وقال الضحاك: ولذكر اللَّه عند ما يَحرم فيترك، أجلّ الذكر، وقيل: المعنىٰ: ولذكر اللَّه للنهي عن الفحشاء والمنكر أكبر؛ أي: كبير.

وقال قتادة وابن زيد: ولذكر اللَّه أكبر من كل شيء؛ أي: أفضل من العبادات كلها بغير ذكر.

وقيل: ذكر اللَّه يمنع من المعصية، فإن كان ذاكرًا له لا يخالفه.

قال ابن عطية [وهو من كبار المفسرين من السلف]: عندي أن المعنىٰ: ولذكر اللَّه أكبر علىٰ الإطلاق؛ أي: هو الذي ينهىٰ عن الفحشاء والمنكر، فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك، وكذلك في غير الصلاة، لقوله تعالىٰ: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكرٍ للَّه مُراقِبٍ له، وثواب ذلك أنْ يذكره اللَّه تعالىٰ، والحركات التي في الصلاة لا تأثير لها في نهي، والذكر النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرّغه إلا من اللَّه، وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبة أخرىٰ.

وذكر اللَّه تعالىٰ للعبد هو: إفاضة الهدىٰ ونور العلم عليه، وذلك ثمرة لذكر العبد ربه، قال تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وباقي الآية ضربٌ من الوعيد والحث علىٰ المراقبة». اهـ

• الذكرُ ذِكْرانِ:

قال الراغب الأصفهاني في «المفردات في غريب القرآن» (ص١٧٩):

«الذّكر تارة يقال ويُراد به هيئة للنفس، بها يُمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ، إلّا أنّ الحِفظ يقال له اعتبارًا باحترازه، والذكر يقال اعتبارًا باستحضاره.

وتارةً يقال لحضور الشيءِ القلبَ أو القول، ولذلك قيل: الذكر ذكران: ذكرٌ بالقلب، وذِكر باللسان، وكل واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة حفظه.

ومن الذكر عن النسيان: قوله: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣]، ومن الذكر بالقلب واللسان معًا: قوله تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وقوله: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

ومن الذكر باللسان: قوله تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤]». اهـ

● تأثير الذكر على القلب والبدن إيجابًا سلبًا:

(٦) قال اللَّه تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

قال ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٣٨):

«أي: ذوو العقول وهي الألباب، جمع لبّ وهو العقل.

قال الحسن البصري: واللَّه ما تدبّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتىٰ إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يُرىٰ له القرآن في خلق ولا عمل». اهـ

(٧) وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

قال ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ٣٠٧):

«إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتّبعون الذكر وهو القرآن العظيم ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: حيث لا يراه أحد إلّا اللَّه، يعلم أن اللَّه مطّلع عليه وعالم بما يفعله ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ لذنوبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ كبير واسع حسن جميل، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]». اهـ

(٨) **وقال تعالىٰ :** ﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران : ٥٨] .

قال السعدي في «تفسيره» (ص١٣٣) :

«وهذا منّة عظيمة علىٰ رسوله محمد ﷺ وعلىٰ أمته ، حيث أنزل عليهم هذا الذكر الحكيم المحكم المتقن المُفَصِّل للأحكام والحلال والحرام ، وإخبار الأنبياء الأقدمين ، وما أجرىٰ اللَّه علىٰ أيديهم من الآيات البيّنات والمعجزات الباهرات ، فهذا القرآن يقصّ علينا كل ما ينفعنا من الأخبار والأحكام ، فيحصل فيها العلم والعبرة وتثبيت الفؤاد ، وما هو من أعظم رحمة ربّ العباد» . اهـ

(٩) **وقال اللَّه تعالىٰ :** ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ [يس : ٦٩-٧٠] .

قال ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٣٢٦) :

«قوله : ﴿إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ ؛ أي : بيّن واضح جليّ لمن تأمَّله وتدبَّره ، ولهذا قال : ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ ؛ أي : لينذر هذا القرآنُ المبين كل حيّ علىٰ وجه الأرض كقوله : ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام : ١٩] ، وإنما ينتفع بنذارته من هو حيّ القلب مستنير البصيرة ، حيّ القلب ، حيّ البصر ، وقال الضحاك : عاقلًا» . اهـ

وقال السعدي في «تفسيره» (ص٦٩٩) عند نفس الآية :

«ما هذا الذي جاء به إلا ذكر يتذكر به أولو الألباب جميع المطالب الدينية ، فهو مشتمل عليها أتم اشتمال ، وهو يذكر العقول ما ركز اللَّه في فِطَرِها من الأمر بكل حسن والنهي عن كل قبيح ﴿وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ ؛ أي : مُبَيِّنٌ لما يطلب بيانه ؛ ولهَذا حذف المعمول ليدل علىٰ أنه مبيّن لجميع الحق ، بأدلّته التفصيلية والإجمالية ، والباطل وأدلة بطلانه ، أنزله اللَّه كذلك علىٰ رسوله ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ ؛ أي : حيّ القلب واعيه ، فهو الذي يزداد من العلم منه والعمل ، ويكون القرآن لقلبه بمنزلة المطر للأرض الطيبة الزاكية» . اهـ

(١٠) **وقال سبحانه**: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

قال السعدي في «تيسير الرحمن» (ص٤٨١):

«يخبر تعالىٰ أنه لا أعظم ظلمًا ولا أكبر جرمًا من عبدٍ ذُكر بآيات اللَّه، وبُيّن له الحقّ من الباطل والهدىٰ من الضلال، وخُوّف ورُهّب ورُغّب، فأعرض عنها، فلم يتذكّر بما ذُكّر به، ولم يرجع عما كان عليه، ونسي ما قدّمت يداه من الذنوب، ولم يراقب علام الغيوب، فهذا أعظم ظلمًا من المُعرض الذي لم تأته آيات اللَّه ولم يُذَكّر بها، وإن كان ظالمًا، فإنه أخفّ ظلمًا من هذا؛ لكون العاصي علىٰ بصيرة وعلم أعظم ممن ليس كذلك، ولكن اللَّه تعالىٰ عاقبه بسبب إعراضه عن آياته ونسيانه لذنوبه ورضاه لنفسه، حال الشرّ مع علمه بها، أن سدّ عليه أبواب الهداية بأن جعل علىٰ قلبه أكنّة؛ أي: أغطية محكمة تمنعه أن يفقه الآيات وإن سمعها، فليس في إمكانه الفقه الذي يصل إلىٰ القلب. ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾؛ أي: صممًا يمنعهم من وصول الآيات، ومن سماعها علىٰ وجه الانتفاع، وإذا كانوا بهذه الحالة، فليس لهدايتهم سبيل ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾؛ لأنّ الذي يرجىٰ أن يجيب الداعي للهدىٰ، من ليس عالمًا، وأما هؤلاء الذين أبصروا ثم عموا، ورأوا طريق الحق حقًّا فتركوه، وطريق الضلال ضلالًا فسلكوه، وعاقبهم اللَّه بإقفال القلوب والطبع عليها، فليس في هدايتهم حيلة ولا طريق.

وفي هذه الآية من التخويف لمن ترك الحقّ بعد علمه، أن يُحال بينهم وبينه، ولا يتمكن منه بعد ذلك، ما هو أعظم مرهّب وزاجر عن ذلك». اهـ

قلت: وقرن الحافظ ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ

وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

● **فإذا كان ذلك كذلك وتقرر عندك ما مضى بيانه فاعلم:**

أن المراد بالذكر في القرآن: أنه تعاليم الإسلام، أوامره ونواهيه وحدوده وأصوله ودعائمه وأركانه وأسسه وشروطه، فالإيمان قول وعمل ونيّة واتباع السنة قول باللسان وعمل بالأركان، فقول اللَّه تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، فالمراد بذكر اللَّه ليس الذكر اللساني الذي تطمئن به القلوب؛ بل هو الذكر الذي نص عليه اللَّه تعالىٰ بقوله: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وهذا الذكر هو القرآن كله العبادات والمعاملات والأخلاق والمعتقدات ومكارم الأخلاق والعدل والإحسان والصدق والأمانة والبر والتقوىٰ، والصلاة والزكاة، والصوم والحج وصلة الأرحام والأعمال الصالحة، والانتهاء عن الفواحش والمعاصي والمنكر والبغي، وغير ذلك من الفروض والسنن الواجبة والمستحبة، وكل ما يتقرب إلىٰ اللَّه به، فليس هو كثرة التسبيح والتكبير والتحميد والتهليل فحسب، بل كل الذكر اللساني القولي صورة من صورة الذكر في كتاب اللَّه.

والأصل في ذلك كله: أن ينهاك ذكر اللَّه عن ارتكاب المعاصي، فتذكر اللَّه بلسانك ذكرًا كثيرًا عند حلول المعصية فيكفّك ذكر اللَّه ويزجرك عن الحرام، هذا هو الذكر المعتبر الحق، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٢٥٠):

«والمعنىٰ: إن الذين اتقوا المعاصي إذا لحقهم شيء تفكّروا في قدرة اللَّه وفي إنعامه عليهم فتركوا المعصية ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾؛ أي: منتهون، وقيل: فإذا هم علىٰ بصيرة». اهـ

● فقه المسألة وفهم المضمون:

قلت: فإنما كتبت هذه الرسالة وهذا المقال لبيان المعتقد الحق في معنىٰ الذكر، وذلك لوجود الخلل العام عند الملايين من الخلْق المسلمين الذين أصابهم الإرجاء وحال المرجئة، وظنّوا أن الذكر باللسان فحسب هو خلاصة الدين، فضلّوا وأضلّوا، وحادوا عن الصراط المستقيم والمنهج القويم ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

وقد اتفق أهل العلم سلفًا وخلفًا أهل السنة والجماعة: أن الإيمان قول وعمل ونيّة واتباع السّنة، نقل ذلك الإجماع الإمام البخاري وأحمد والشافعي ومالك، والثوري وابن عيينة والطبري وأبو زرعة وابن أبي حاتم والآجُرّي وابن بطة العكبري واللالكائي وعبد الرحمن بن مهدي والأوزاعي وابن المبارك، وابن تيمية وابن القيم وأبو عثمان الصابوني والكرماني وغيرهم كثير، وهو منقول نقل التواتر إلىٰ زمن صحابة رسول اللّه ﷺ.

ويدخل في وجوب الذكر الفعلي قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣].

والاكتفاء بالذكر اللساني من غير ترتيب الفعل والعمل، هو خلل في المعتقد وفساد في الفهم، وضعف في التفقه، وعوار في الفكر، وخلاصة المقالة في الوعي الصحيح، والإدراك المعتبر، والتصور الحسن، في معرفة الذكر في كتاب اللّه حدوده وضوابطه، ووضوح معناه وصفته، ومن يُرد اللَّه به خيرًا يفقّهه في الدين، فما ظنكم برجل يسبّح ويكبّر ويحمد ويهلل آلاف المرات من الأذكار وهو لا يصلي؟! وآخر مرابط علىٰ الفواحش والمنكرات والمعاصي التي عُلمت حرمتها من الضرورة وهو يكثر من الأذكار وله وِرْدٌ يوميّ بها؟!

وآخر يظن أنه كلما فعل حرامًا من سرقة أموال الناس واغتصابها وظلم

الخلق، ثم يمكث ساعة علىٰ الذّكر وهو حسن الظن بربه؛ لأن الحسنة في الذكر بعشرة أمثالها، وهو سرق واغتصب مرة واحدة اليوم وهي معصية واحدة؟!

نعم قد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٥]، ولكن هذا مع التوبة النصوح، ثم يكون له ورده من الأذكار المصاحبة للفروض والواجبات من الصلاة والزكاة والصيام والحج ونوافل هذه العبادات والإكثار من الأعمال الصالحة والنَّدم علىٰ ما بدر من المعاصي والفواحش، مع كثرة الاستغفار الدائم وتطهير القلب والدين والخلق والنفس والروح والعمل والمعتقد والفكر من كل ما يخالف اللَّه ورسوله، وكل هذا التطهير جُمعت معانيه في قوله تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]، ذكره القرطبي في «جامعه» (١٩/ ٤٩-٥٢) عن السلف المفسرين للآية، ومن جملة التطهير: تطهير الجسم والثياب والمكان، فهذا هو فقه الذكر في القرآن، ومعناه ومضمونه وكُنهه وصفته.

• صورة خاطئة زعموا أنها من الذكر:

وقد زعم ملايين من المسلمين، أن من جملة الذكر المحبوب جدًّا إلىٰ الملايين من المصريين أن ما يقوم به الكثير من المنشدين الذين ينشدون أشعارًا مرتبطة بالرسول ﷺ مع مصاحبتها للألحان الموسيقية والعزف، والفرق المكتملة من العازفين، مع الرقص من الحاضرين علىٰ أنغام هذه الأناشيد، وكل هؤلاء في نشوة لا تخالف المطربين والمستمعين لهم في حفلاتهم الغنائية الراقصة وغير الراقصة، مع الاختلاط بين الرجال والنساء وكل منهم يتمايل ويترنَّح بجسمه ورأسه يمنة ويسرة، والكثير منهم يشرب السجائر والمخدرات والخمر، لاسيَّما في أفراح القرىٰ، وهم يسمّون هؤلاء المطربين مشايخ!!! وليس ثَمَّ إلا وجود هذه الكلمات الملحّنة علىٰ أنها مدح في رسول اللَّه ﷺ؟! ناهيك عما يقال في هذا المدح من تنزيل الرسول منزلة اللَّه وهم لا يشعرون؛ ﴿سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]، وخطب جسيم، ومعتقد فاسد لئيم!!!

فأين هذا الرقص والغناء والاختلاط والمنكرات من ذكر اللَّه؟! فهذا تحُفّه الملائكة؟! وتنزل عليه الرحمة؟! ويذكرهم اللَّه فيمن عنده؟!

رویٰ ابن بطة العكبري في «الإبانة الكبرىٰ» (٢٢٥)، والمروذي في «السنة» (١٠٠)، وابن وضّاح في «البدع والنهي عنها»(ص٣٨-٣٩) عن ترجمان القرآن ابن عم رسول اللَّه ﷺ، ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما من عام إلّا يحيا فيه بدعة، ويُمات فيه سُنّة، حتىٰ تحيا البدع وتموت السنن».

- **أقول**: ما هُدم الدين، ونقضت عراه عروة عروة وشعيرة شعيرة، إلا من سطوة البدع وانتشارها، حتىٰ فسد المعتقد وهلك الناس.

ثم أختم كلامي بحديث مهم في هذا السياق لاكتمال البيان:

فقد رویٰ أحمد في «مسنده» (٢١١٩٥)، وابن ماجه في «سننه» (٣٧٩٠)، والترمذي في «سننه» (٣٣٧٧) عن أبي الدرداء قال: قال النبي ﷺ:

«ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخيرٌ لكم من إنفاق الذهب والوَرِقِ، وخير لكم من أن تلقوا عدُوَّكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟!» قالوا: بلىٰ، قال: «**ذكر اللَّه تعالىٰ**»، قال معاذ بن جبل: ما شيء أنجىٰ من عذاب اللَّه من ذكر اللَّه».

هذه رواية الترمذي ثم قال:

«وقد رویٰ بعضهم هذا الحديث عن عبد اللَّه بن سعيد مثل هذا بهذا الإسناد، وَرَوَىٰ بعضهم عنه فأرسله». اهـ

قلت: ورواه الحاكم في «المستدرك» (١٨٢٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه، وقال الذهبي في «التلخيص علىٰ هامش المستدرك»: «صحيح».

وقال المباركفوري في «تحفة الأحوذي» (٨/ ٣٨٠) بعد هذا الحديث في

شرحه: «إلّا أن مالكًا في «الموطّأ» وقفه علىٰ أبي الدرداء، وقد صححه الحاكم في «المستدرك»». اهـ

قلت: فقد اختلفوا في رفعه ووقفه وإرساله، وعلىٰ كلٍّ، فإنه يفهم هذا الحديث علىٰ ما بيّنْته مفصّلًا في معنىٰ الذكر المراد في القرآن، ولا يستغلق عليك هذا الحديث؛ لأن معناه ليس علىٰ ظاهره، فيكون دليلًا للمرجئة علىٰ مذهبهم.

قال المباركفوري في «التحفة» (٨/ ٣٨٠):

«وقيل: عطف علىٰ «**خير أعمالكم**» عطف خاص علىٰ عام؛ لأن الأول خير الأعمال مطلقًا، وهذا خيرٌ من بذل الأموال والأنفس، أو عطف مغاير بأن يُراد بالأعمال: الأعمال اللسانية، فيكون ضد هذا؛ لأن بذل الأموال والنفوس من الأعمال الفعلية.

قال عز الدين بن عبد السلام في «قواعده»: هذا الحديث مما يدل علىٰ أن الثواب لا يترتّب علىٰ قدر النّصب في جميع العبادات، بل قد يأجُر اللَّه تعالىٰ علىٰ قليل العمل أكثر مما يأجر علىٰ كثيرها، فإذًا الثواب يترتب علىٰ تفاوت الرُّتب في الشرف». اهـ

وقال السِّنْدِيّ في «شرح سنن ابن ماجه» (٤/ ٢٤٢):

«قوله: «**خير أعمالكم**»: أحاديث أفضل الأعمال مختلفة، وقد ذكر العلماء في توفيقها وجوهًا، من جملتها: إن الاختلاف بالنظر إلىٰ أحوال المخاطبين، فمنهم من يكون الأفضل له الاشتغال بعمل، ومنهم من يكون الأفضل له الاشتغال بآخر». اهـ

قلت: وهذا ثابت بالأحاديث النبوية الصحيحة ومنها:

ما رواه البخاري (٢٦)، ومسلم (٨٣/ ١٣٥): أنه ﷺ سُئل: أيّ الأعمال أفضل؟ قال: «**إيمان باللَّه وجهاد في سبيله**» قيل: ثم ماذا؟ قال: «**حج مبرور**».

قلت: فهنا أفضل الأعمال الجهاد والحج، وفي حديث الباب أفضل الأعمال الذكر، فما الذكر إذن؟ ما قلت لك آنفًا في هذه المقالة.

كذلك حديث البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥/ ١٣٥): عن عبد اللَّه بن مسعود ﵁ قال: قلت: يا رسول اللَّه أيّ الأعمال أفضل عند اللَّه ﷿؟ قال: «**الصلاة علىٰ وقتها**» قلت: ثم أيّ؟ قال: «**برّ الوالدين**» قلت: ثم أيّ؟ قال: «**الجهاد في سبيل اللَّه**» قال: حدثني بهن رسول اللَّه ﷺ ولو استزدته لزادني.

قلت: ولم يذكر رسول اللَّه ﷺ الذكر في هذين الحديثين.

فإذن، هو كما قال السندي في شرح هذا الحديث، وهذا يؤكد أن هذا الحديث المذكور في «الذكر وفضله» ليس علىٰ ظاهره، وإنما المراد ما فصّلته من أقوال أهل العلم، في المعنىٰ المراد بذكر اللَّه والمقاصد الشرعية؛ لاكتمال الفهم والفقه في المسألة المطروحة للبيان والكشف والوضوح بالحجة والبرهان.

واللَّه يقول الحق وهو يهدي السبيل، والحمد للَّه أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، وصلىٰ اللَّه وسلم علىٰ نبيّنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

بلَّغه

الفقير إلى ربِّه

ابن الكيَّال